

الإنسان والله

٤٦ - إذا كنا قد أدخلنا « الله » في عداد « الأعيار » الذين لا بد للإنسان من أن يواجههم ، ويصطرع معهم ، ويحدد موقفه بإرائهم ، فذلك لأن الوجود البشرى هو في جانب ما من جوانبه « حوار مع الله » ، أو « صراع ضد الله » ، أو على حد تعبير « برديف - Berdiaeff - » « ديالكيتيك إنسانى إلهى » . وسواء آمنة بإله الفلاسفة الذى هو أقرب إلى « العقل » منه إلى « الشخص » ، أم آمنة بإله الأديان السماوية الذى ليس كمثله شئ ، أم أنكرونا وجود الله بدعوى أنه ليس وراء الطبيعة شئ ، أو وقفنا من الحقيقة الإلهية موقف المتجاهل أو غير المكترث ، فإننا فى كل هذه الحالات لا بد من أن نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتراف بأن « فكرة الله » تتدخل فى صميم حياتنا ، بوصفها فكرة ميتافيزيقية جوهرية تلعب دوراً هاماً فى تاريخ الوجود البشرى . وإذا كان تصور المجتمعات لله قد اختلف باختلاف الحضارات وتعدد البيئات وتنوع العقليات ، فإن « فكرة الله » نفسها تكاد تكون عاملاً مشتركاً بين شتى أنواع الحضارات ، حتى لقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الإنسان بطبعه « كائن متدين » ، لأنه لا يستطيع أن يستغنى عن الإيمان بالله ، أو الكائن العلوى ، أو الوجود الأسمى ، أو الحقيقة المقدسة ، أو « المتعالى » ، أو « المطلق » . حقا إن بعض المفكرين قد جعل من الروح الدينية عرضاً من أعراض طفولة الشعوب أو قصور العقل البشرى أو انحراف الشخصية الفردية ، ولكن الحقيقة أننا لو أزلنا من دنيا الناس كل ما يحمل آثار الإلهام الدينى ، لقضينا فى الوقت نفسه على أئمن كنوز الحضارة البشرية . ومهما حاولنا أن نطرد « فكرة الله » من عقولنا ، فإن هذه الفكرة لا بد من أن تعود إلينا بصورة ما من الصور ، مادام العالم الذى يعيش فيه عالماً ناقصاً لا يستطيع أن يكفى نفسه بنفسه ! ولئن كان الملحد قد يسمى

جاهداً في سبيل تصور « العالم » على أنه حقيقة مكتملة مكتفية بذاتها مغلقة على نفسها ، إلا أن « الإيمان بالله » سرعان ما يجد ثغرة في نسيج يقينه الموضوعى . فلا يلبث أن ينفذ إلى فكره بشكل مقنع أو بصورة ضمنية . ومعنى هذا أننا بمجرد ما نتحقق من أن في معرفتنا ثغرات ، أو أن في حياتنا هوات ، فإننا سرعان ما نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نعلو على أنفسنا لكي نهب بقوة أخرى نسد بها ما في عالمنا التجريبي من نقص . وسواء أكانت تلك القوة التي نهب بها هي الله ، أم الطبيعة ، أم التاريخ ، أم العلم ، أم التقدم ، أم المجتمع ، أم الحزب ، فإننا في كل تلك الحالات إنما نحقق « فعلا دينيا » نعبر به ضمناً عن إيماننا بوجود شيء ، يعلو على الإنسان⁽¹⁾ ! أما إذا زعم البعض بأن في وسعه الاستغناء نهائياً عن فكرة « تعالى » في أى صورة من صورها ، بحجة أن في وسع الكائن المتناهي أن يتقبل حالة « التناهي » بوصفها حالة مستكفية بذاتها ، فربما كان في وسعنا أن نرد عليه بأن نقول إن مثل هذا الموقف يكاد يكون ضرباً من المستحيل ، لأن « التناهي » يستلزم من أجل الشعور به تجاوز حالة « التناهي » نفسها ، إن لم يكن بالفعل ، فعلى الأقل على سبيل الرجاء أو الأمل أو النزوع . ونحن نعرف كيف حاول أوجست كونت أن يقضى على الروح الدينية ، بدعوى أنها تمثل عقلية عتيقة لم يعد لها موضع في دنيا العلم والمعرفة الوضعية ، ولكنه لم يلبث أن وجد نفسه مضطراً إلى الاستعاضة عن الديانات القائمة بديانة جديدة أقامها على طائفة من الأساطير العجيبة ، وتلك هي « عبادة الإنسانية » التي فشلت في استمالة الناس إليها . والواقع أن شتى المذاهب الوضعية والنزعات العلمية المتطرفة إنما تجتريء بتعديل الأسلوب التقليدى في تطبيق فكرة « المتعالى » ، فزاهها تضيف عليه ذاتية جديدة وتنسب إليه مفهوما مغايراً . وآية ذلك أن ديانة العلم ، أو الطبيعة ، أو الديموقراطية إنما تستبدل بالوحي الدينى الفائق للطبيعة ، وحيها علمياً أو طبيعياً مزموماً ، وهذا الوحي العلمى الذى تستند إليه إنما تحصله بتخليها عن أبسط القواعد الأولية للموضوعية العلمية الحقيقية . وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى فلسفة التاريخ ، فإنها حين تؤمن بأسطورة التقدم ، إنما تقدم لنا بذلك الدليل القاطع على أنها تريد أن تستبدل بالعلم الإلهى نتاجاً جديداً يكون من شأنه أن يعمىء كل ما لدى الإنسان من قوى وجدانية وأخلاقية (مثلها في ذلك كمثل سائر النزعات الدينية التقليدية) ،